الرأى العـــام المصرى

بقلم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المـــازنى

لا بد من تنبيه أستهل به هذا الموضوع : هو أنى أهملت الجانب السياسى فى بحثى هذا ، وأنا أول من يعترف أن هذا نقص وأنه يضيق مجال الكلام ، و يأخذ على الباحث متوجها رحيبا كان يستطيع أن يركض فيه ركضا طويلا ، ولكنا فى زمن حرب ، وللحرب مقتضياتها التى لا مفر منها ولا حيلة فيها ولا فائدة من محاولة تجاهلها ، والحرب عرض أو مرض إذا شئتم ، يعترى الأمم و يقلب الأوضاع فيها ، و يعكس الآيات كلها ، فهى حالة لا يقاس عليها لأنها الشذوذ والاستثناء ، وقراتها تمر وتترك أثرها ولا شك ، ولكن المعول على حياة الأمم فى ازمنة السلام ، وحياة الأفراد فى أوقات الصحة ، وإن كانت الحرب ، أو العلة ، قد أورثتها ما يخفى ولا يتعذر رده إلى أسبابه ، فى الأغلب والأعم ، من الآراء والاتجاهات وغير ذلك .

والذى فهمته من العنوان الذى اختاره قسم الخدمة العامة فى الجامعة الأمريكية ، وهو "الرأى العام المصرى" هو أن المراد بيان خصائص هذا الرأى العام ، وما يتميز به ، وليس الجانب السياسى إلا مظهرا يتخذه الرأى العام ، فى حالات وأوقات معينة ، والمظهر شىء والخصائص شىء آخر ، والعبرة بالخصائص التى تجعل هذه المظاهر ممكنة كالثمرة تخرجها الشجرة وتطرحها ، ولا سبيل إلى ثمرة بغير شجرة ، وقد تطيب الثمرة أو لا تطيب والمرجع فى ذلك إلى الشجرة ، و إذا أردت أن تجعل الثمرة أطيب وأنضج وأحلى ، فإن عليك أن تعالج الشجرة ، لا الثمرة .

من أجل هذا لا أرى أن إهمالنا الجانب السياسى للرأى العام فى مصر ، وفى زمن الحرب ، يضير البحث و إن كان لا ريب فى أنه يترك الحلبة أقل سعة .

*
* *

وقد سبقنى إلى الكلام عن الرأى العام وبيان حقيقته والعناصر التى يتكون منها ، أستاذان جليلان هما الدكتور إبراهيم بيومى مدكور ، والدكتور محمد مظهر سعيد ، ولكنه فاتنى لسوء حظى أن أسمع محاضرتهما ، لعوائق لم تكن لى فى تخطيها أو تذليلها حيلة ، وكان بحثهما خليقا أن يكون عونا كبيرا لى ، ولكنى حرمته فلم يبق لى إلا أن أتوكل على الله وأساله أن يستر ضعفى وقصورى .

محاضرة ألقيت بالجامعة الأمريكية .

سئل بعضهم عن الرأى العام ما هو ؟

فكان الجواب أنه الناس جميعا ما عدا نحن أى المتكلم والمخاطب .

وهذا الجواب يشى بالرغبة فى التظاهر بالاستخفاف بما يسمى الرأى العام وقد قلت " التظاهر بالاستخفاف " ولم أقل " الاستخفاف " لأن الحقيقة — على قدر ما أعلم — هى أنه ما من أحد فى أطواء ضميره يستخف أو يرى من حقه أن يستخف بقوة الرأى العام و إن تظاهر بخلاف ذلك . ولعل أصح التعبيرين أن نقول إن جواب صاحبنا مظهر للرغبة الطبيعية فى التميز ، أى الخروج من العموم ، والدخول فى الخصوص ، فان كل إنسان يشتهى أن يعد منفردا بمزية تبوئه مرتبة خاصة وتسلكه مع القليلين المتفوقين وترفعه عن طبقة الأكثرين العاديين الأوساط .

و لجواب صاحبنا على الرغم مما انطوى عليه وجه صحيح ، هو أن الرأى العام هو رأى الكثرة من الناس ، أو الجمهور أو الجماعة الكبيرة ، ولكنه ليس رأى الفرد الذى ينتهى إليه فيما بينه و بين نفسه ، أو الذى يقتنع به و يذهب إليه بعد البحث مع واحد أو اثنين أو عدد قليل محدود من الناس .

وعسى أن يسأل سائل : هل معنى هذا أن رأى الفرد وهو وحده فى أمر ما يخالف رأيه حين يكون فى جماعة كبيرة ؟ وهل وجوده فى جماعة كبيرة يدفعه إلى غير ما كان خليقا أن يذهب إليه وهو خال بنفسه .

وجوابى أن أسوق عبارة للباحث المشهور ماكس نورداو بمعناها لا بلفظها وهى من فصل له فى كتابه " الأكاذيب المقررة فى المدنية الحاضرة " وفى هذا الفصل يتكلم عن المجالس النيابية وجدواها وقد فرض أن مجلسا نيابيا كل أعضائه من طبقة العظماء والعباقرة فى كل باب ، مثل شكسبير ، وبيكون ، وجوتيه ، وكانت ، وداروين ، و بيتهوفن ، ونابليون ، والاسكندر الأكبر ، وهومر ، وسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو وأضراب هؤلاء من جميع الأمم والعصور .

وقال لنفرض أن خمسمائة من هذه الطبقة التى لم تنجب الانسانية أرفع منها اجتمعوا فى صعيد واحد ، فماذا تكون النتيجة ؟ وقال فى جواب ذلك إن كل واحد من هؤلاء العظماء الذين يعيى الزمان مكان أندادهم ينفرد بمزية ، و يشبه الآخرين فيما عدا ذلك مما يعد صفات أو طباعا إنسانية عامة مشتركة ، فلشكسبير شاعريته ، ولكانت فلسفته ، ولبيتهوفن نبوغه فى الموسيقى ، وللاسكندر عبقريته الحربية . وكل واحدة من هذه المزايا أو المواهب قائمة بنفسها مستقلة عما عداها ، لاتشبه الأخريات ولا تماثلها أو تقاربها أو تأتلف معها ولكل هؤلاء جميعا على تفاوت مواهبهم خلق واحد ، فطرته واحدة ، فإذا رمزنا إلى العنصر

الإنسانى المشترك بحرف " ع " و إلى كل موهبة ينفرد بها واحد منهم ويتميز بحرف خاص، مستقل اجتمع عندنا خمسمائة " ع " وألف واحدة و باء واحدة وجيم واحدة وهكذا . والقاعدة الحسابية التى تعلمناها فى المدارس هى أن المختلفات لا تجتمع لأنها لا تأتلف ، و إنما يجمع ما هو من نوع واحد ، وكما أنك لاتستطيع أن تقول عندى خمس برتقالات إذا كان عندك برتقالة واحدة وتفاحة واحدة إلى آخره، كذلك لاتستطيع أن تجمع هذه المواهب المتفاوتة . فالنتيجة إذن هى أن خمسمائة عين مجتمعة ، مؤتلفة ، تتكون منها كلة أو قوة تقابل وتواجه وتقاوم مواهب متنافرة لا تتساير ، ولا تتعاون ، ولا تتجمع ، ولا تتألف منها قوة واحدة متآزرة، ومؤدى هذا أن العنصر الإنسانى المشترك بين هؤلاء العظماء المحشورين يتغلب بقدرته على الائتلاف على المواهب المتفرقة المختلفة التى يتميز بها كل منهم ، فلا يبقى لهذه المواهب فعل أو تأثير فيما يسفر عنه اجتماعهم من رأى ، و إنما يكون الفعل والأثر للعامل الإنسانى المشترك . ولا داعى إلى مسايرة ماكس نورداو إلى غايته وهى أنه لا فرق بين مجلس نيابى من الأوساط العاديين ومجلس آخر من العظماء اذا اعتبرنا النتيجة ، وهذا بحث آخر لا يعنينا هنا فلانستطرد معه اليه ، وحسبنا الحقيقة الثابتة وهى أن الجماعة تتأثر بقوة العوامل الانسانية المشتركة لا بالمزايا والمواهب الفردية ، لأن هذه لكونها منفردة لا تستطيع أن تقاوم ما اجتمع من تلك ، ومن هنا ما يسمونه روح الجماعة ، وقد لا يرضى الفرد عنها وهو بمعزل، ولكنه وهو فى الجماعة ينساق معها عن رضى واختيار أو بقوة اندفاع التيار الذى لا يملك وحده صده .

ويجوز لنا الآن أن نقول أن الرأى العام هو مظهر روح الجماعة لا روح أفرادها كل على حده، أو هو التيار الذى تحدثه الخصائص المشتركة بين الشعب ، وقد لا يكون هذا تعريفا علميا مضبوط الحدود ، وما أظن أن فى الوسع تعريف الرأى العام على وجه الدقة ، ولكنى أظن أن ما وصفته به ، وان خلا من الدقة والإحكام، كاف فى التعريف به وبيان المقصود منه .

وأعود إلى جواب من سئل عن الرأى العام فقال انه الناس جميعا ما عدانا، فأقول أنه لا سبيل إلى اسقاط هذا الرأى العام من الحساب لأنه يسيرنا برغمنا مادمنا مخلوقات اجتماعية بالطبع ، وليس فى وسع أحد أن يحيا فى عزلة تامة ومهما بلغ من استقلال الفرد فانه مضطر أن يحسب لهذا الرأى العام حسابه ، فى كل ما يصدر عنه من قول أو عمل ، ولكن المرء منا أديبا أو سياسيا أو محاميا أو طبيبا أو معلما أو عالما ، فان للرأى العام حسابه عنده ، سواء اعترف بذلك أو أنكره وكابر فيه .

وليس من الضرورى أن يكون الرأى العام مخطئا فى كل حال ، أو مصيبا فى كل حال ، فانه يخطىء ويصيب ، ويضل ويهتدى ، ولا ضابط لهذا ولا قاعدة ، ولكنه ، أخطأ أم أصاب ، يفرض علينا اتجاهات عامة يتعذر التعرج عنها ولا معدل لنا عن مراعاتها إلى حد ما اذا أردنا أن تكون حياتنا محتملة ، ودع عنك النجاح فان رضى الرأى العام شرط له ولا سبيل اليه بغيره ..

والآن نستطيع أن نقول كلمة فى رأينا العام المصرى ، فكيف هو ، وما هى خصائصه ؟...

وأبدأ فأقول أن خصائص الشعوب معظمها موروث ، وليس فى وسع شعب أن يتخلص من أثر التاريخ الطويل والعقائد والتقاليد التى يتلقاها جيل عن جيل وما خلفته فى نفسه أطوار الحكم المختلفة التى تعاقب عليه ، ولاشك أن للتعليم والتربية اثرهما فى التهذيب والصقل ، ولكن العقل لا يغير الأصل ولا يعدل بالطباع عن متوجهها .

والذى يعرف المصريين معرفتهم يستطيع أن يفطن إلى اتجاه الرأى العام فى كل حال فلا تخطىء فراسته ، وهذا كلام يصدق على كل أمة فى الحقيقة ، ومن أجل هذا ترى كثيرين يستطيعون أن يعرفوا سلفا هل يقبل الرأى العام هذا الأمر أو لا يقبله ، وماذا عسى أن يكون مبلغ رضاه عنه أو تسامحه فيه .

والمصرى بطبيعته لين العريكة شديد التسامح طويل الاناة عظيم الصبر ولكن فيه عنادا شديدا ، وبلاجة قوية فيما يأخذ فيه ، ولا قدرة عجيبة على الاحتمال ، وفيه فكاهة يركب بها كل شىء وروح فنية واضحة وايمان عميق ، وسوء ظن تركته فى نفسه وكادت تطبعه عليه حقب طويلة من الحكم الظالم المتعسف .

وليس فى الوسع بطبيعة الحال أن يرتب الانسان الخصائص القوية على نحو ما ترتب الكتب على رفوفها ، فانها تتزاوج وتتفاعل ويتسرب بعضها فى بعض كما تتسرت الموجة فى الموجه ، ويكون أثر بعضها أوضح وابرز فى حالات أخرى ، ولكنى أعتقد أن ما ذكرته من الخصائص الكبرى هو أبرز ما يتميز به المصريون ويختلفون به عن غيرهم من الشعوب ولست تعدم هذه الصفات فى أمم أخرى ، ولكنها فى المصريين معرقة فى القدم .

وعناد المصريين وقدرتهم على الاحتمال إلى حد حمل البعض على وصفهم بالبلادة ، وعاداتهم فى تهوين الأمور بالفكاهة ، وركوب ما يكرهون بها — هذا فيما اعتقد هو الذى حماهم أن يندمجوا فى الأمم الأخرى . التى فتحت بلادهم وحكمتهم أزمنة مديدة وصان عليهم شخصيتهم ، بل أفنى فيهم الأمم الفاتحة . وذلك على الرغم من عظم تسامحهم وفرط اللين فى عريكتهم .

ونستطيع أن نقول أنه لا تناقض هنا ، فإن شدة تسامحه مرجعها الى شعوره الباطنى بقوته الكامنة وقدرته على المقاومة الى ما شاء الله بغير عناء، ولين عريكته راجع الى الذكاء الفطرى الذى يحول دون المغالاة بشيء،ويعين على أخذ الأمور مأخذا سهلا ، وركوب الحياة بالفكاهة يوسع الصدر ويهوّن الأمور وييسر الاحتمال،ومتى أطلقت على عدوك نكتة تجعله موضع استهزاء ومضغة فى الأفواه فإنك تشمر له باستخفاف ولاتشعر بغضب يحتدم ويدفعك الى النزق والعمل الأخرق .

ومن هنا نرى الرأى العام المصرى يظهر بعاطفته — أى بالاعجاب أو الحب ، أو المقت والنفور، أو الاحترام أو الاحتقار وبحكمه على الأمور ورأيه فيها أكثر مما يظهر بعمله ، أى أن الرأى العام المصرى يجتزئ فى الأغلب والأعم بالعاطفة يظهرها، والرأى يبديه ، والحكم يتجلى من موقفه ويندر جدا أن يجاوز ذلك الى فعل يفعله .

وقلما تتغير عاطفته ، لأنه يألفها ويحبها ولأنه ينفر من التحول عما اعتاد كما يدل على ذلك تاريخه الطويل الحافل، ويصعب أن يغير رأيه لهذا، ولأن فيه كما أسلفت عنادا ولجاجة، ثم لأنه سيء الظن يتلقى كل جديد أو طارئ بنظره المستريب غير المطمئن .

وقد قيل فيه انه سريع النسيان ، وقد يكون هذا من التسامح، أو لعله من الاهمال أو الجهل ، أو لأنه يشغل بالحاضر عن الماضى ، على أنى أشك فى نسيانه وأرد ما يبدو من ذلك الى الكسل العقلى وعسى أن تكون التربية القويمة كافية فى علاج ذلك .

وتمتاز سيرة المصرى بعمق إيمانه بالقضاء والقدر،وقد طوفت فى بلاد كثيرة،وخالطت أقواما كثيرين من غير المصريين فلم أر مثل إيمان المصرى بالقضاء والقدر وأحسب أن هذا هو الذى يكسبه هذا الجلد الذى لا نظير له ، ويحمى صبره أن ينفد،ويهون عليه كل مايعانى ويعينه أيضا على التغلب على ما يكره .

وفكاهته مضرب المثل فى البراعة وإصابة المحز،وفى سرعة الخاطر بها،ولا أظن أن بى حاجة الى كلام فى هذا ، وما أكثر ما محا المصريون أثر عمل ، بل ضيعوا رجالا بنكتة والفكاهة كما تعلمون مظهر لصحة الإدراك، ودقة الفطنة، ولتعدد جوانب النفس ، وكثير من فكاهة المصريين لفظى، أى أن مداه على اللعب بالألفاظ المتشابهة أو المتقاربة،ولكن كثيرا منها معنوى، ينفذ الى الصميم، ومن ولع المصريين بالفكاهة أنهم اتخذوا من النكتة فنا ، وكانوا يتساجلون فيها ، ويتنادرون ، وكانوا يعقدون لذلك حلقات وأكثر ما كانت تشاهد هذه المساجلات فى الأفراح التى كانت تقام فى الجيل الماضى ولا تزال هذا بقية فى الأرياف، وقد انحط هذا الضرب من النكتة حتى صار محفوظا لا فضل فيه للابتكار أو

سرعة الخاطر وحضور الذهن، ولكن النكتة المصرية ارتقت بعد أن خرجت من هذا النطاق التقليدى وعادت من وحى الفطرة و إلهام السجية، ومن اشتهار المصريين بالفكاهة قال فيهم قائل أنه لو كانت الحرب بالنكتة لفتح المصريون لندن .

والفكاهة المصرية مظهر لروح الفن الأصلية العريقة فى المصريين . وقد ينكر البعض أن المصريين مطبوعون على روح الفن، لقلة ما يرون من مظاهرها فى عصرنا هذا، ولكنك لا تستطيع أن تنكر على مصر روح الفن وهذه آثار أجدادهم الأقدمين ما زالت قائمة. وليس من المعقول أن ينعدم روح الفن فى أمة هذه براعات أسلافها الباقية على الزمن .

وتأمل طرب المصرى للغناء، وكيف يستخفه الصوت الشجى والشدو الجيد والايقاع الحسن . بل تأمل كيف يؤثر الأصوات المرتجلة على الأصوات المصوغة المعدة . و يفضل المغنى الذى يستطيع أن ينتقل من نغمة الى نغمة على البديهة، وارتجالا، أليس هذا من روح الفن التى طبع عليها المصريون ؟ وليس معنى هذا أن غير المصريين لا يطربون ، فان هذا يكون هراء ، ولكن حب المصريين للارتجال وتفضيلهم ذلك على الأصوات المحضرة التى يلزمها المغنى و يتقيد بها ولا يخرج عنها دليل على ما أذهب اليه ، من انطباعهم على روح الفن .

وقد يعلل تفضيل الارتجال بأن الموسيقى ما زالت عندهم فنا لم يرتق إلى مرتبة العلم المضبوط كما صارت فى الغرب على قول أهل العلم بذلك . وقد يكون هذا صحيحا أو غير صحيح . فما أدرى ، فان مبلغ علمى بالموسيقى ان أسمع فأطرب ، ولكن الذى أعلمه أن موسيقانا وان كانت لاتزال فنا ، مضبوطة القواعد والأصول وليست فوضى ، وانى على جهلى أشك فى أن تستطيع الموسيقى أن تصبح علما محكما كالحساب والجبر وأن تحتفظ بقيمتها الفنية ووقعها البالغ فى النفس إذ فرجت من الفنون وانتظمت فى سلك العلوم من أمثال الكيمياء والطبيعة وما إلى ذلك .

وقد تكون مظاهر الفن فى حياة المصريين قليلة ، ولكن هذا من الجهل والفاقة ، والعبرة على كل حال ليست بما عسى أن أقتنى فى بيتى من صور وتحف وأنسق هنا وهناك من زهر وورد ، وأقتنى من أثاث جميل ، فقد يتيسر لى كل هذا إذا كنت صاحب مال ، ولا يكون هذا دليلا على ادراك لقيمتها الفنية والعبرة بالادراك والشعور ونزعة النفس وقد تكون مظاهر ذلك ساذجة أو فى نطاق ضيق ، غير أن الذى عليه المعول هو وجود الادراك وحصول الشعور . أما المظاهر فقد تكون راجعة إلى الطاقة والقدرة .

و كل هذا يبدو أثره فى الرأى العام لان الرأى العام مرجعه الى الخصائص القومية ، والمزج الذى هو أغلب .

وقد لوحظ على رأينا العام أنه طويل اللسان ، ولست أرى هـذا مستغربا أو بدعا ، فان مثله يمكن أن يقال فى كل رأى عام آخر، وطويل اللسان خير من طويل اليد. على أن الامر طبيعى لأن الجماعة أجرأ ، والمعهود أن الجماعة تكون أيضا أحط مستوى من الفرد وفى كل أمة أفراد ممتازون بسمو الأخلاق والآداب وعلو النزعة ، والافراد هم الذين يرتقون بالجماعات وليست الجماعات هى التى ترتقى بالأفراد .

وقد يكون هـذا البحث غير ما كنتم تتوقعون ، ولكن الحقيقة أن الرأى العام ليس شيئا عاديا تستطيع أن تتناوله وترفعه قبل العيون وتديره أمامها وتعرض جوانبه عليها ؛ وانما هو تيارات من العواطف والآراء تصدر من الخصائص التى فطرت عليها الامة أو اكتسبتها على الزمن ، وتؤثر بمجردها أو بما تدفع اليه من عمل وأرجو أن لا أكون قـد أخطأت خطأ كبير حين حاولت أن أرد الرأى العام المصرى إلى هذه الخصائص ، ولا أستطيع أن أدعى أن هـذه هى كل خصائص المصريين من موروثة ومكتسبة ، فان الاحاطة عسيرة والاستقصاء شاق ، ولكنها حسبنا كمثال يقاس عليه .

إبراهيم عبد القادر المـازنى